

من الأصوات الطبيعية إلى تشكيل الجذر اللغوي من البدهي أن البشر عامة لا يحاكون الأصوات بنفس الكيفية، والدليل على 4 - 2 ذلك أن الأطفال يصدرون أصواتاً قد تأتلف أو تختلف من لغة إلى أخرى، وبحكم حاجة الإنسان إلى التفاهم يميل البشر إلى محاكاة أصوات الطبيعة بأصوات تكاد تكون موحدة، وهذه الأصوات التي يصدرها الإنسان مشابهة إلى حد ما للأصوات الطبيعية، لذلك لا نغالي إذا ادعينا، أن الصوت مدلول الشيء، بل هو الشيء ذاته كما قال أفلاطون في محاوره كراتيلوس، لذلك لجأ الإنسان إلى التعبير عن الأشياء بوسائل مختلفة من بينها الإشارة، ثم بعد ذلك اقترنت الإشارات بالأصوات الصادرة عن الطبيعة عبر المحاكاة، ولكن هل كل الأصوات ابتدعها الإنسان ناتجة عن محاكاة أصوات الطبيعة، أم أن هناك أصوات أصدرها في شكل انفعالات تنفسية تعبيراً عن رغبة أو إحساس بفرح وحزن؟ تنطلق في سبيل الإجابة عن التساؤل السابق من بداة مفادها أن الأصوات التي مخرجها الفم بانطباق الشفتين ارتبطت بالطعام، كما هو الأمر عند الصبي، فالمص والمز و الطعام والتمر والمضغ والمرق والملح والملح وغيرها كثير كلها أصوات دالة على الإطعام، في حين أن الأصوات الصادرة من الأنف أصوات تنفسية من قبيل الأنين والحنين والنهيق والنفير والنعيق والنقيق النفس بفتح الفاء، وقد دخلت هذه الأصوات في إطار مزاجية مع أصوات أخرى عبر التصحيف والإبدال، لتتأمل الشكل التالي: اللغة والطبيعة من محاكاة الصوت الطبيعي إلى بناء الكلمة (دراسة ومعجم) الصوت، والتي صدرت عن الطبيعة أو عن الإنسان، فالحنين والأنين والنقيق والنعيب والنهيق كلها أصوات لكنها تختلف حسب مصدرها وارتباطها بالموجودات... إن النون تدل على الصوت بالأصالة، أي أن الإنسان الأول اهتدى إلى هذه الدلالة من خلال ما كان يصدره من أصوات، فالأنين صوت إنساني انتقل إلى القرير والحنين والأزيز والهنين، كما أن الأفعال من قبيل نق ونعق انتقلت على التوالي إلى زق وزقب وزقح وصق وصفق وصفر وزعق ورعد وصعق وصلق وصل وصل وصل، فكل هذه الأصوات التي حلت محل النون، وتعرضت لآلية التوليد والتوسع اكتسب دالة النون عبر التبعية، وقس على ذلك باقي الأمثلة في الأشكال المبسطة أعلاه، فهل هذا الأمر محض صدفة؟ هناك ارتباط قوي بين الجانبين الصوتي والدلالي بين المفردات المضمنة في الأشكال السالفة الذكر، مما يعني أن توسع الدلالة مرهون بتوليد الألفاظ عبر الإبدال، ولذلك تمتح كل لفظة دلالتها الخاصة من مدلول لفظة أخرى، لكن بشكل من التخصيص فالصوت واحد وأنماطه تختلف. يتولد اللفظ الإنساني من تمازج الأصوات الطبيعية، حيث يتضمن أغلب أجزائه... أسلفنا الذكر أن آلية الإبدال ساهمت في توليد مفردات اللغة العربية، وفيما يلي نموذج يوضح اشتغال هذه الآلية: تولدت حسب هذا النموذج هب وهم من نب من جهة وهز و أز من نز من جهة أخرى وهزق وهق انطلاقاً من نزق، هذا فيما يتصل بالإبدال الذي اعتور الحرف الأول، فماذا عن الحرف الثاني، لا شك أننا انطلاقاً من هذه المعطيات يسهل علينا الوصول إلى المفردات التالية: نق متولدة عن نب وهر انطلاقاً من هب. وما ينطبق على هذه الصيغ يسري على نبج وناح، حيث بإبدال النون نحصل على باح، ومن لفظة نق عبر الإبدال نحصل على دق وطق وزق، لكن هذه الإبدالات الصوتية تقابلها إبدالات دلالية نوضحها من خلال هذا الشكل: وواضح إذا أن عملية تشكل الدال والمدلول يوحى بوجود مناسبة لغوية دلالية بين الصوت والدلالة، أما الأصوات الرقيقة فتتناسب المشاعر الإنسانية، أليست الحاء صوت فيه إحياءات المشاعر إنسانية ما، بل هي التي ولدتها؟، لتتأمل الأمثلة التالية: - حرر (الحرارة ضد البرودة، وحرَّ صَدْرُ الشيخ أي التهبت الحرارة في صدره حتى سمع لها صليل، واستَحَرَّتْ، كلاهما يبست كبده من عطش أو حزن، ومصدره الحرر) وقد تكون حارة ذات حماة، وبئر حَمِيَّة أيضاً، كذلك. وأحماها إحماء، مهموزاً وغير مهموز، أي غَضِبْتُ عليه وحمي: غضب). ماذا نستنتج إذا؟ ربما رصد العلاقة بين النار والمشاعر الإنسانية نتج من خلال عملية الإحساس بالحرارة، فالإنسان العربي حالياً عندما تلفحه النار يصدر حرف (خ)، وإصدار هذا الصوت في البداية تولدت عنه ألفاظ كثيرة تدل على النار والمشاعر الإنسانية كثنائية عليّة كانت النار علة في وجود معلولات تحققت في صيغ أحاسيس إنسانية. وإذا انتقلنا إلى حرف القاف الموحى بدلالة القوة والعنف، وما هي حدود علاقة هذا الحرف بالأصوات الأخرى؟، لننظر إلى هذه الأمثلة: 66: إذا رجعنا إلى المعاجم العربية وحصرنا دلالة كل مفردة من المفردات الواردة في الشكل نستنتج أن دلالاتها تدور حول القطع والفصل، وهذه الدلالة العامة تندرج تحتها دلالات فرعية من قبيل التقليل والتجزئ والتفريق وهلم جرا، أما إبدالات هذه المفردات فلا تخرج عن دلالات المفردات المتضمنة لحرف القاف، مما يمكننا من تفسير كيفية انتقالنا من قط إلى هدم، وحتى لا نحيد عن المنهج العلمي الذي سطرناه في التعاطي مع المادة المعجمية العربية نقترح أمثلة أخرى نستعرضها في الشكل التالي: أبرز استنتاج نخرج به من خلال الشكل 7 أن الأصوات المشكلة للألفاظ العربية ليست ذات طبيعة واحدة، وإن كانت متشابهة، فهاء (هد) ليست هي عينها هاء (مان)، فالأولى تحمل دلالات القطع والفصل بتبعيتها لحرف القاف الحامل لهذه الدلالة بالقوة، فالهاء تحتل هذه الدلالة في إطار الإبدال أو التعويض، ومعنى ذلك أن حرف القاف مشاكل لمصدر الصوت الطبيعي، في

المقابل إبدال هذا الحرف بأصوات أخرى كان نتاجاً طبيعياً دالاً عن تطور اللغة، ذلك أن القطع معنى عام، لكن تندرج تحته دلالات تقيده وتسيقه كما هو واضح من خلال هذين الشكلين الشكل 8 يتضمن صوت القاف الدلالة العامة على القطع، وتنشطر هذه الدلالة العامة إلى مجموعة من الدلالات الجزئية التي تصور طريقة القطع أو كيفيته أو ارتباطه بشيء دون آخر، ولا تخرج إبدالات القاف عن هذه الدلالة المتضمنة في هذا الصوت، وحتى لا نترك القارئ أمام ترسيمات غامضة ندعوه إلى التأمل في هذه الألفاظ اللغوية المذيلة بمدلولاتها: يعق: التبعية الشق وفي الحديث (يُعَقُّونَ لقاحنا) أي ينحرونها. بقر: بقرت الشيء بقرأ: فتحتة ووسعتة. يقع: أرض بقعة: نبتها متقطع. ثقب: الثقب الحرق النافذ. دقم: دمقه يدمقه دمقاً: كسر أسنانه. أي: يكسر دماغه. شرق: شرقت اللحم: قطعتة طولاً وشررتة في الشمس ليحف. شقب النقب والشقب: صدع يكون في قوب الجبال. عقر: عقره أي جرحه. وجن الخازبان به جنونا فقص: فقص البيضة كسرهما. قيب قب فلان يد فلان إذا قطعها. سبب (إبدال القاف سينا قبب): السبب: القطع. سبت (إبدال الهمزة تاء في سبأ): أصل السبت: القطع. سلت (إبدال الباء لاما في سبت): في المحكم: وسلت أنفه يسلته ويسلته سلته: جدعه. والأسلت: الأجدع. قب: جيب (إبدال القاف جيما في قبب): الجب: القطع. جلد (إبدال القاف جيما في قذ): الجد: كسر الشيء الصلب. جذب (إبدال الذال باء في جذذ) جذب المهر فطمه وجذب النخلة يجذبها: قطع جذبها. جزز إبدال الذال زايا في جد) جز قطع. جزم إبدال الزاي ميما في جزع): جزمه يجزمه: قطعه. جزل إبدال الزاي لاما في جرز): جزله بالسيف: قطعه جزلتين أي نصفين. والجزل القطع. وجزلت الصيد جزلاً: قطعتة باثنتين. 71 اللغة والطبيعة من محاكاة الصوت الطبيعي إلى بناء الكلمة (دراسة ومعجم) لكن تعدد مصادر هذا الصوت أفضى إلى انشطار هذه الدلالة العامة إلى دلالات صغرى تقيدها وتخصصها و تشرحها، وما إن صوت الكاف في دلالتة على الجمع والحياسة يتأخى مع أصوات أخرى، ويوضح مرحلة مهمة تشكلت في إطارها بنيات اللغة العربية، ويبين أيضاً أن الحياة الاجتماعية والثقافية كانت وراء هذا التوليد، وهذا يعني أن المدلولات ليست متطابقة، ولكنها تذوب في مدلول واحد تتغير إبدالاته الدلالية حسب السياق